بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ■ ٦ سبتمبر ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

القطرة الزائدة!

أنا سيدة في الأربعين من العمر نشأت في أسرة مكونة من أب وأم وسبعة من الأبناء. وقد رحلت أمي عن الحياة وأنا في طفولتي. فلم يصبر والدي على وحدته طويلا وسارع بالزواج من أخرى. وانفرد معها بأجدى غرفتي الشقة الصغيرة التي نقيم فيها وتكدسنا نحن الأبناء السبعة في الغرفة الثانية. ولم تمت الحياة أن كشرت لنا عن أنيابها وبدأ الصراع بيننا وبين زوجة الأب ووالدنا الذي انصرف عنا وعن كل شئ إلى زوجته. مما أدى إلى مثل سخط أجوتي في الدراسة. أما أنا فقد استمرت في الاستمتاع بفرصتي في التعليم ومبرت أمري بحيث أواصل الدراسة مهما تكن الظروف قاسية حتى التحقت بكلية التجارة. وبدأت أرى زميلاتي يرتدين أحدث الفلاسي وأدخل بيوتهن فأرى التليفزيون الملون والغيام الساخنة وأشكالا جديدة للحياة لا أعرفها. وتوثقت العلاقة بيني وبين زميلة لي يعمل والدها بأحد البنوك. فكنت أتردد عليها كثيرا وأقضي معها معظم اليوم ولا أذهب إلى البيت إلا في المساء. لكي أنام. وتخرجت في الكلية فأكدت على صديقتي هذه أن ترجو والدها في أن يتيح لي فرصة التدريب في البنك معها. وتم ذلك بالفعل وتدربت بالبنك خلال عام الخدمة العامة وانتظرت أول الشهر بفارغ الصبر لكي أقبض أول مكافأة أكسبها في حياتي وكانت خمسين جنيها. وبعد عامين عينت في نفس البنك بمساعدة والد صديقتي وتم توزيعي على أحد الأقسام فوجدت رئيسة شابا يكبرني بنحو عشر سنوات ووسيما وأنيقا وخدوما وبحسن معاملة الآخرين... ووجدت محطم فتيات القسم معجبات به ويتمنينه لأنفسهن. فأدركت أنه حلم صعب المنال بالنسبة لي. لكني لم أتوقف عن الأمل فيه إلى أن جاء يوم سمعته فيه يتحدث إلى صديق له في التليفون ويضرب له موعدا للقاء في الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي. أمام البوابة الرئيسية لمعرض القاهرة الدولي. وعلى الفور حزمت أمري وقررت أن أذهب للمعرض في نفس هذا الموعد والتقي به. كما لو كان لقاء بالصدفة.. وذهبت إلى هناك بالفعل ورأيته وعبرت الطريق أمامه كأنني لا أراه وناداني صديقه فاصطنعت الدهشة لهذه الصدفة السعيدة وقلت له إنني كنت على موعد مع صديقة لزيارة المعرض لكنها لم تحضر. فتحجب للمصادفة لأنه كذلك كان على موعد مع صديق لنفس الغرض وتخلف أيضا عن الحضور. وسألني عما إذا كنت أحب مشاهدة المعرض معه فرحبت بذلك. ودخلنا معا وأمضينا عدة ساعات معا. وتواعدنا على اللقاء في الموعد نفسه غدا لاستكمال الفرجة. وقام بتوصيلي إلى مسكني بسيارته.. وفي اليوم التالي أمضيت معه يوما سعيدا آخر ووجدته انسانا كريما وودودا. وفي نهاية اليوم سألني وهو يودعني إلى منزلي عما إذا كنت أقبل به زوجا لي.. فقلبتني دموعي فراح هو يحنو علي.. ويخفف عني. وفاتحت أبي برغبة رئيسي في التقدم إلى فرحب بذلك لكي يطلع له السكن مع زوجته. وجاء رئيسي مع أخته وأخيه والتقوا بوالدي. وصارحه أبي بأننا لانملك شيئا وأنه إذا أراد أن يتزوجني فعليه أن يتكفل بكل شئ. دون أي مساعدة منه. وقبل ذلك. ولم تمض أسابيع حتى كان قد عقد القران. وبعد شهور قليلة تم الزواج وانتقلت إلى شقة زوجي الجميلة المؤثثة بكل الكماليات.. وأجهزة التكييف والأجهزة الكهربائية الحديثة. وتحقق الحلم الجميل الذي لم أتصور إمكان تحقيقه. وأصبحنا نذهب إلى العمل ونرجع منه معا.. وافتتحت لنفسي بعد الزواج دفتر توفير في البنك أصبحت أضع فيه مرتبي أو معظمه كل شهر لأن زوجي الكريم أبى على أن أنفق منه شيئا على حياتنا. وحملت وأنجبت طفلة جميلة وبعد انتهاء إجازة الوضع وجدت أنني أحتاج للتفرغ لبيتي وأسرتي فحصلت على إجازة بدون مرتب وحملت مرة أخرى ثم ثالثة وأصبح لدينا ولدان وبنت. ومضت الأيام جميلة وبهيجة. فحتى الخلافات البسيطة التي تحدث بين الزوجين كانت سرعان ما تزول. وتقدم زوجي في عمله وأطرد نجاحه وازداد دخله.. ووجدت أنني لن أستطيع العودة للعمل فتقدمت باستقالتي إلى البنك لكي أتفرغ لأسرتي. وحصلت على مبلغ لا بأس به كمكافأة أودعته دفتر التوفير بناء على نصيحة زوجي. وواصلت الحياة طريقها وزوجي يضعنا في بؤرة اهتمامه.. ولا يعكر علينا صفو الحياة شئ سوى أنني قد أصبحت مع الأيام واعيا. الأبناء والبيت عصبية مع زوجي لأقصى الحدود. وأثور عليه لأتفه الأسباب. وهو يهدئ روعي ويستحلفني الا تحدث أية مشادة بيننا أمام الأبناء. لكيلا تتأثر نفسياتهم. وفي هذه الفترة كان زوجي قد دخل في بعض المشروعات التجارية مع بعض أصدقائه وبدأت مشروعاته في النمو. وأصبحت تدر علينا دخلا كبيرا.. وحاول زوجي أن يحصل على إجازة بدون مرتب لكي يخصص وقتا أكبر لأعماله التجارية فلم يوفق في ذلك. ولم يجد مفرا من الاستقالة من البنك والتفرغ لأعماله الخاصة.

ثم اضطربت فجأة حياة زوجي العملية حين استولى أحد شركائه على قيمة أحد الشيكات وفر بها. فتأثرت الأعمال التجارية. واضطربت الأحوال ووصل الأمر إلى ساحة القضاء.. لكن زوجي لم ييأس والتحق بالعمل بأكثر من شركة تجارية. فلم يكن العمل يطول في كل منها أكثر من ٥ أو ٦ أشهر. ثم يعود إلى البيت.

وفي هذه الأثناء. زادت عصبيتي معه بشكل رهيب. وأصبحت أشتبك معه في مناقشات عنيفة تستغرق الليل بأكمله وتستمر حتى الصباح. وهو يرجوني أن أخفض صوتي لكيلا يسمع الأبناء. بلا طائل. وحتى أنه كان في بعض الليالي يترك البيت ويركب سيارته ويظل يطوف بها في الشوارع حتى يطلع النهار ويذهب الأولاد للمدرسة فيرجع مهدودا ليناموا. وما أن أشعر بوجوده حتى أنهض من نومي لأستأنف معه النقاش. وغضبت من زوجي وهجرته إلى بيت أبي وشكوت إليه حالي فقال لي إنه لاحظ له بحياة زوجي ومن حقه أن يدبر أموره كيف يشاء. مادام لايفرض في شئ مع أبنائه. ورحل أبي فجأة عن الحياة وأنا مقيمة لديه. وبعد وفاته أبلغتنا زوجته أنه قد كتب لها الشقة منذ ثلاث سنوات. وحضرت إلينا في نفس اليوم سيدة أخرى معها طفل قالت لنا إنها هي الأخرى زوجته وهذا الطفل ابنه!

وهكذا وجدت الدنيا تنهار من حولي ولم يعد لي مكان في بيت الأسرة فرجعت إلى منزلي ومسعى الأبناء. وانقطعت صلتي بالمكان الذي نشأت فيه. وبعد وفاة أبي بدأ أخي الأكبر الذي لم يكن يزورني كثيرا من قبل في زيارتي والاهتمام بأمري. خاصة أنه كان قد استقرت حياته وافتتح لنفسه مشروعا صناعيا بإحدى المدن الجديدة.. وبدأت أنا أعتمد عليه كأخ أكبر وأحكي له كل كبيرة وصغيرة في حياتي.. وأصبحت أستجيب لكل ما ينصحني به حتى أنني هجرت غرفة نومي وأصبحت أنام في حجرة الأبناء بناء على نصيحته. لكي أستحث زوجي على أن يجد حلا لمشكلاته.

وذات مساء. جاءني زوجي بعد نوم الأبناء.. وقال لي إن معه شيكا يستحق الصرف بعد ٢٠ يوما. وطلب مني أن أعطيه أي مبلغ لكي ينفق منه على البيت إلى أن يحل موعد الشيك فيعيده إلي. فثمرته وانطلقت أجرجه بشكل غير طبيعي وهو صامت لاينطق حتى استيقظ الأبناء من نومهم على صوتي وانذهلوا ببكون فأدخلتهم حجرتهم.. وأنا أشعر بسعادة شديدة لأن الأبناء قد تصوروا أن أباهم يحتدي على بالضرب ومضت الأيام بحلوها ومرها وزوجي يحاول جاهدا الاصلاح ونصائح أخي لي تسف جهوده أولا بأول.. وكلما شعرت أن مع زوجي مبلغا من المال أخبرته أنني مرضة وفي حاجة إلى استشارة طبيب وإجراء تحاليل. فلا يملك إلا أقبول لأنه يعرف أن المرض معناه أن تحدث مشادة عنيفة بيننا أمام الأبناءوهو لا يريد ذلك. وباختصار ياسيدي فقد أحلت حياته إلى جحيم وأعترف لك بذلك وأعتاد الجيران سماع صوتي العالي وهو يسب بأقذع كلمات السباب. وهو يتحمل صابرأويستحلفني بالله أن أدعه يعيش في أمان لكي يستطيع تدبير رزقه ورزق أولاده. وأنا أشعر كأنني قد ركبت قطارا أنطلق بأقصى سرعته.. ولم أعد أستطيع إيقافه.

وفي الصيف الماضي وجدته ذات يوم يعد حقيبة سفر صغيرة وسألته عما يفعل فأجابني بأنه سيسافر إلى بورسعيد لقضاء بعض الأعمال التجارية وسافر. وفي اليوم التالي تلقيت منه ورقة الطلاق. وجاء معها المحامي الذي يتعامل معه زوجي ورجال من قسم الشرطة لكي أتسلم منقولاتي ومؤخر الصداق. وأسرعت أتصل بأخي فحضر ليشاركني هذا الموقف العصيب. وبعد مداولات انتهينا إلى أن أخذ معي الأولاد بناء على طلبي بالرغم من إنتهاء حضانتي لهم ومقابل أن أتكفل أنا بنفقاتهم. وألا أطالب مطلقي بشئ.. وتم إنزال أثاث بيتي بسيارة نقل ثلاثة مع الأبناء. والجيران ينظرون إلينا من الشرفات في صمت. وذهبت إلى مسكن أخي. لكن إقامتي لديه لم تطل كثيرا لأنني أحسست أنني لو بقيت معه فترة أطول فسوف يخسر زوجته. ويساعدنا عشرة على شقة سطح صغيرة من غرفة وصالة. وانتقلنا إليها في حين تكوم معظم الأثاث في مخزن يملكه صديق أخي.. ودخلنا الشقة الجديدة والأبناء يتلفتون حولهم في ذهول وأنا مثلهم. ومضت الأيام وأنا أتحمل مسئولية الإنفاق على الأبناء من مدخراتي. وبعد بضعة أشهر خرجت ابنتي الكبرى في الصباح الباكر دون أن تصارحني بوجهتها. وانقضى النهار بغير أن تعود. وعند الغروب استدعاني الجيران لأرد على مكالمة تليفونية فوجدتها منها ووجدتها تبلغني بإنها لدى والدها وستقضي الليلة معه وطلبنا أن نقابلهما أمام حديقة الحيوان في صباح اليوم التالي.. وذهبنا كلنا في الموعد.. وبعد قليل حضر زوجي السابق بسيارته ومعه ابنتي وإندفع إليه الولدان في شوق وفرح ورأيته يحتضنهما ويقبلهما والدموع تملأ عينيه. ثم أعطى كل ولد مطروفا به ألف وخمسمائة جنيه ولابنتي مطروفا مماثلا. وودع الأبناء وانصرف مسرعا بسيارته وأنا واقفة فوق الرصيف لاأتحرك ولم يصافحني ووجدت ابنتي تحمل حقيبة كبيرة عرفت إنها تحوي ملابس جديدة لها اشتراها أبوها لها ولأخويها وملابس للمدارس. ومنذ هذا اليوم حدث تحول غريب للابناء. تجاه والدهم وبدأوا يهاجمونني ويتهمونني بأنني السبب في حرمانهم من أبيهم. وخاصة ابنتي الكبرى التي أصبحت تذهب إلى والدها كثيرا وتبقى عنده بالأيام. كما أن ابني الصغير الذي يحب أباه يجنون ذهب إليه وقضى معه شهرا كاملا لم أره خلاله.. وأنا الآن في موقف غريب.. أعرف إنني أخطأت في حق زوجي السابق كثيرا وأهنته كثيراً وحطمت بيتا كان من الممكن أن يكون من أسعد البيوت. وأعرف أيضا أنه يقرأ لك بانتظام. فهل يمكن أن توجه إليه كلمة لكي يعيد اجتماع الشمل مرة أخرى. وأنا على استعداد لان أقبل الأرض التي يسير عليها من أجل الأبناء الذين أصبحت حياتهم صعبة خاصة وأنني أشعر أنهم سوف يذهبون إلى أبيهم الواحد بعد الآخر ذات يوم وأبقى أنا وحيدة؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

قد تكون رسالتك هذه فرصة لا بأس بها لفهم سر إقدام أحد شريكي الحياة على اتخاذ خطوة مصيرية غير متوقعة على خلاف ماكان يبدو عليه من استسلام ظاهري لظروفه.. وقبول للشرب على القذى على مدى سنوات طويلة.. حتى ظن به الطرف الآخر أنه لايجرؤ على الاعتراض، ناهيك عن التغيير!

إن النفس البشرية كالناس التي تفيض فجأة إذا تلقت قطرة واحده زائدة على قدرتها النهائية على الاستيعاب.

وبعض شركاء الحياة يتغافلون عن إدراك أن كأس الشريك قد امتلأت ولم يعد بها متسع للمزيد. وبدلا من أن يحاولوا إفراغها من محتوياتها القديم من المرارات أولا بأول. بالاعتذار ومحو الأساءة.. وحسن العشرة والحب والعطاء وإثبات حسن النية.. يواصلون إضافة المزيد والمزيد إلى أن تجئ اللحظة الحاسمة وتفيض الكأس بما فيها ويتعذر الاصلاح. ويفاجأ أحد الطرفين بالآخر وقد انتفض كالمارد بغير سابق إنذار وسد كل أبواب التفاهم.. وأصر على الانفصال مهما تكن التبعات.

والحق أن أكثر ما يمن على إفراغ هذه الكأس قبل أن تفيض بما فيها... هو أن يكون الخطأ عابرا وليس متعمدا. أو أن يعتذر عنه مرتكبه ويسترضي الشريك حتى تخلو نفسه من الموجدة أو أن يحرص على مودة صاحبه حتى لينسيه بعد قليل الإساءة السابقة. أو أن يقف إلى جواره في المحن والشدائد فتجب فضائله الأساسية عثراته الهينة.. أو أن تكثر محاسنه فتمحو تلقائيا سيئاته على نحو ما عبر عنه المتنبي بقوله:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا
ففعاله الثاني سرين ألوف

وقبل ذلك كله لا يسبب الخطأ المرتكب في حق الشريك جرحا غائرا لكرامته الانسانية.. ولا يشعره بالهوان على صاحبه.. ولابالجحود ونكران الجميل. فإذا كان من ذلك النوع احتاج من مرتكبه إلى ما هو اكثر من الاعتذار والاسترضاء البسيط وتطلب التكفير وصدق الندم.. والوعد المقنع بعدم العودة إليه مرة واحدة. وفي ظني أنك قد تغافلت عن حقائق عديدة في مدخلتك بزوجك السابق.. ولم تتروى في تعاملك معه في السنوات الأخيرة.. فاعتمدت اعتمادا خاطئا على روح المسألة التي يتعامل بها مع إساءاتك إليه.. وخوفه الدائم من إطلاع الأبناء على خلافاتكما.. فتمادت بروعونة في الإساءة إليه والاستهانة بأمره. وحولت حياته كما تقولين إلى جحيم. وصاحكم تفتيش وتواصل طوال الليل حتى ليفر منها ويهيم على وجهه في الشوارع إلى أن يطلع الصباح حتى يذهب الأبناء إلى المدرسة ويطمئن إلى أنهم لن يشهدوا هوانه ومذلته مع زوجته.

ومن أسفه إنك لم تفعلي ذلك لأنه كان يسئ عشرتك أو يخون عهد الوفاء معك أو يتصرف عنك وعن أبنائه إلى زوجة أخرى أو يطلق العنان لأهوائه ويتغمس في اللهو والعبث والفجور بما يؤثر على سمعة الأسرة والأبناء. وإنما أسئت كرامته وكبرياءه لسبب لايشرف أي زوجة حريصة على حياتها الزوجية وأمان أبنائها.. وهو تغير أحواله المادية لأسباب لا حيلة له فيها.. بعد أن كان الحلم صعب المنال الذي تتنافس فتيات البنك على الفوز به. وتخططين أنت لاقتناصه لكي ينتشلك من ظروفك القاسية قبل الزواج وبدلا من أن تواسيه بمالك حين تغيرت أحواله وتعينينه على أمره حتى يستعيد ما فقده وبقف على قدميه من جديد تحولت إلى زوجة عدوانية معه وتوحشت في إساءة معاملته. بالرغم من اجتهاده لارضائك وتلبية متطلبات حياة الأسرة بقدر الإمكان. وبالرغم من إقرار والدك كذلك بأنه لايقصر بالرغم من ظروفه في تلبية مطالب الأبناء.

ولا تفسير لذلك لدى سوى أن سعيك للفوز به دون الآخريات لم يكن استجابة لنداء القلب المتطلع للسعادة بقدر ماكان أملا عمليا في التخلص من ظروفك القاسية والفوز بالحياة الكريمة والأمان المادي.. أي أنه كان تطلعا إلى حياة أفضل وإنسلاخا من واقع اجتماعي مؤلم .. وليس في ذلك خطأ في حد ذاته لأنه حلم مشروع لكل انسان. لكن الخطأ قد بدأ حين اعتبرت تغير أحواله المادية وكأنه إخلال من جانبه بشروط المشروع المادي الذي شغلت به عند التطلع للارتباط بهذا الرجل. وتعاملت معه وكأنه جان ارتكب في حقك خطيئة عظمى لابد من عقابه عليها لتعسره المادي وضياع مالك.

وليس هكذا تفعل الزوجة المحبة التي ترتبط مع زوجها بوحدة المصير في السراء والضراء وفي الصحة والمرض وفي الفقر والغنى..

ولاعجب إذن في أن ينتهي بك السعي إلى حيث بدأت خطواتك للارتقاء الاجتماعي. فترجعين إلى مايشبه المسكن القديم الذي كان يتكدس في إحدى غرفه سبعة من الإخوة. لأن الشكر هو الحافظ للنعم.. وليس التمرد والجحود والانقلاب على الشريك حين تتغير أحواله المادية ولأنه كما يقول الحديث الشريف:

«التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لايشكر القليل لايشكر الكثير ومن لايشكر الناس لايشكر الله والجماعة برحمة والفرقة عذاب، صدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ولم يكن من شكر النعم ان تقلبي لزوجك ظهر المجن لمجرد انه فقد ماله.. او اضطربت احواله التجارية.

والآن فإنك تقولين إنك تعرفين إنك قد اخطأت في حق زوجك كثيرا واهنته كثيراً، وتأملين في إعادة جمع الشمل معه.. وهذا أمل مشروع لك لاشك في ذلك.. لكنك لاتبررينه بأنك قد أدركت هول أخطائك وندمت عليها ندما شديداً وأدركت كم كنت متجحرة المشاعر.. صخرية القلب حين كفرت بعشرة زوجك الذي يتحمل منك الأذى صابرا ولا يرد عليك الاساءة إلا بالرجاء المؤسل إليك بخفض صوتك لكيلا يسمعك الأبناء، وصبح عزمك على أن تعوضي زوجك عن كل ماعاناه معك.. وتغيرت بالفعل افكارك وشخصيتك إلى الافضل. وترغبين في استعادة أبنائك لحياتهم العائلية المستقرة وإنما تبررين رغبتك في العودة بمبرر يعد استطرادا للتفكير المتحضر في الذات.. وهو ان الأبناء قد بدأوا يتجهون إلى ابيهم ويعرفون له فضله ويتعاطفون معه.. ويتهمونك بالمسئولية عن حرمانهم من حياتهم العائلية ولن يمضي وقت طويل حتى يشعروا واحدا بعد الآخر عائدين إلى احضان ابيهم وتاركين إياك للوحدة وسوء المصير!

ولست أحسب ان هذا المنطق الذاتي سوف يفيد شيئا في إقناع زوجك السابق بأنك قد أدركت بالفعل حقيقة ما ارتكبت من اخطاء جسيمة في حقه وحق أبنائك، بل وحق نفسك، ولن يغريه بالأمل في ان يتعامل مع متغيرات إيجابية في شخصيتك في حالة العودة إليك، وإنما يفيد حقا الا تكتفي بمجرد الإقرار بالخطأ وإنما تضيف إليه صدق الندم وإبراء الذمة من حقوق من اخطأت في حقهم.. والاعتذار الكافي لهم، وان تواصل الجهد المخلص الدءوب للتكفير عن خطاياك في حقهم واسترضائهم إلى أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا بأنه قد تغير بالفعل إلى الافضل.

ومن أقوال السيد المسيح عليه السلام: من يهلك نفسه من اجلي يجدني.

وكذلك الحال أيضا مع اهدافنا في السعادة والامان، فإننا لا نحققها بمجرد التمني او الرغبة فيها، وإنما نحققها بالجهد والعرق والصبر على المكاره.. لكي «نجدها» في نهاية المشوار.

فابذلي كل ذلك في سعيك لاستعادة السعادة والامان في حياتك، وحاولي إقناع زوجك السابق إذا لاتستعين للعودة إليه لان ظروفه المالية قد بدأت في التحسن كما هو واضح من نهوضه لتحمل مسئوليته المادية عن أبنائه بالرغم من انفاقه مبلغ على استمرار حضانتك لهم مقابل الانفاق عليهم، وإنما لأنك قد ادركت ما كان قد فات عليك من حقائق الحياة وعرفت له بالفعل فضله وقدره وحسن عشرته لك.

وحبذا لو قدمت له اي دليل «مادي» لاثبات ذلك حتى ولو كان رمزيا لاشعاره بتغير افكارك المادية السابقة!